

لا أُحاولُ أَنْ أَدَّعي أَنَّني أَصْبَحْتُ حَكِيمَةً مُقَارَنَةً بِمَا كُنْتُ عَلَيْهِ قَبْلَ ثَلَاثَةِ أَعوامٍ مِنَ الآنَ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَقلَّ خَبَرَةً وَأَكْثَرَ اسْتِعْدَادًا لِإِطلاقِ الأحكامِ الجاهزةِ على الناسِ والأفكارِ والظواهرِ مِنْ حَوْلِي. وعلى الرَّغمِ مِنْ مِيلي بِطَبْعي إلى الجدلِ، إلَّا أَنَّ لِكُلِّ التَّجْربَةِ أَثْرًا في نَفْسي يُشْبِهُ أَثْرَ أدواتِ تشذيبِ النَّباتاتِ وَتَهْذِيبِها. إِذْ كُنْتُ كَثِيرَةَ الحِرْصِ على تَبْنِي المَوْقِفِ الَّذِي لا يَتَبَنَاهُ أَحَدٌ في نِقاشِ ما، كَعَادَةِ السَّنْفُورَةِ المُعْتَرِضةِ، بِحَمْلِ رَايَةِ الدِّفاعِ عَنِ الظَّاهِرَةِ دِفَاعًا مُسْتَمِيمًا زادَ مِنْ حَدِّهِ ارْتِفاعُ نِسْبَةِ الطَّلِبَةِ غَيْرِ المُتَقَبِّلِينَ لِنَفْشِي العَرَبِيَّةِ وَسَيْطَرَتِها على شَكْلِ تَواصُلِنا اليَوْمِي. عَجَبًا لَهُمْ! وَذَلِكَ ما لا يَرْضَى بِهِ أَبناءُ اللُّغاتِ الأُخْرى لِلْغائِبِ... فَهِيَ تُساهِمُ في خَلْقِ مَشْرُوعِ الهِجْرَةِ الصَّامِتَةِ إلى لُغَةٍ أُخْرى، وَتَتَسَبَّبُ في زِيادَةِ تَسارُعِ تَحَقُّقِهِ على مُستَوَيي اللُّغَةِ المَنْطُوقَةِ وَالْمَكْتُوبَةِ. بَلْ قَدْ يَتَجَاوَزَانِهِ إلى المُطالَبَةِ بِالاعْتِرافِ بِهَذَا المَسْخِ الكِتابِيِّ في صِياغَةِ المُحتَوَى الدِّرَاسِيِّ وَالْمُعَامَلاتِ الرَّسْمِيَّةِ بِما يُحَقِّقُ مُتَطَلِّباتِ الواقعِ الَّذِي يَمِيلُ إلى الأَسْهَلِ! وَقَدْ نَخْتَفِي الصُّورَ وَالِاسْتِعَاراتِ، وَنَمَحِّي العَيْنَ وَالضَّادَ وَالْقَافَ، تَسَبَّبَ في خَلْقِ غُرْبَةٍ في نَفْسِ الجَدَّةِ وَالْجَدِّ اللَّذَيْنِ لَمْ يَتَعَلَّمَا غَيْرَ العَرَبِيَّةِ، وَمِمَّا قَدَّمْتُهُ حِينَئِذٍ في دِفاعِي: - أَنَّ الطِّبَاعَةَ على مَفاتيحِ الحُرُوفِ العَرَبِيَّةِ تَتَطَلَّبُ وَقْتُاً مُضَاعَفًا مُقَارَنَةً بِالْوَقْتِ اللَّازِمِ لِلطِّبَاعَةِ على مَفاتيحِ اللُّوحَةِ بِالنِّكَلِيَّةِ. فَأَيُّنَ نَحْنُ مِنْ عَصْرِ السَّرْعَةِ وَسُرْعَةِ العَصْرِ؟ - أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ لا تُهْدَدُ جَوْهَرِ اللُّغَةِ وَلَا قَواعِدِها. وَنَحْنُ المُدافِعُونَ عَنْها، لا نَطالِبُ بِأَكْثَرِ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّعبِيرِ عَنِ الكَلِماتِ العَرَبِيَّةِ بِاسْتِعْمالِ رُموزٍ مُسْتَعَارَةٍ مِنْ أَرْقامِ وَحُرُوفِ لاتينية، وَهِيَ حَلٌّ مُبْتَكَّرٌ أَوْ جِسْرٌ يَصِلُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ... سَقَطَتْ كَلِماتِي الأَخِيرَةُ على مَسْمَعِي كَجِجَارَةٍ صَغِيرَةٍ وَمُتَلَحِّقَةٍ، وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ العِباراتِ "الكول" عَبْرَ وَسائِلِ التَّواصُلِ، وَتَصْنِيفُهُمُ الحارُّ